التعبير الصوفي في رواية «عرس الزين »

د.ملياني محمد
جامعة تلمسان

« إن الأثر الأدبي العظيم يتنفس برئة الدين»،لأن التعبير الديني في النص الروائي يجعل من اللغة حبلى بالدلالة، تتفرد بجانب شعري يحمل بين طياته فلسفة متفردة في رؤية الكون والوجود، تهمس بحمولة معرفية وفكرية وأخرى ذوقية تستعصي على «العقل غير المؤيد بالذوق أن يدركها ويستعصي على اللغة الرمزية أن تفصح عن أسرارها»1

طرحنا من تواشج الكتابة الروائية واحتضانها للموروث والمعتقد الصوفي وميلها نحو التأمل في الكائن وإثارة الفضول للكشف عن المأمول لأن الخطاب الصوفي يعمد «إلى تحويل دلالاته إلى دلالات مغايرة تقوم على أسلوب الإثارة والرمز»2

الصوفي في رواية «عرس الزين»:

من أبرز مظاهر توظيف الصوفي في رواية عرس الزين للطيب صالح اللجوء إلى استخدام الخارق والعجيب للدلالة على القوى الخفية التي تتحكم في سيرورة الشيء أو القضايا التي تفوق قدرات

الإنسان على الاستيعاب كالأسطورة التي عادة ما «تدور حول كائن خارق القدرات ،وأحداث ليس لها تفسير طبيعي «3 والخوارقية «تنتمي إلى الأدب الخيالي، وتهدف إلى تهييج عواطف القارئ وإثارة خياله بواسطة وصف المشاهد الغريبة أو الأفعال المرعبة أو الأحداث الخارقة غير المألوفة والتي تناقض العادة...».4

ضمن هذا الإطار يؤسس الطيب صالح خطابه السرد ي في روايته «عرس الزين «على نسقين متداخلين : الأول واقعي يتخذ من قرية «ود حامد «ومجريات الحياة اليومية لأهلها ولأحلامهم وآمالهم فضاء له. والثاني عجائبي يتمظهر في تصرفات شخصياتها .

يقدم السارد علما حيا متحركا، خاضعا لمبدأ الحيوية النابعة في الأساس من استخدام السارد الوصف الموضوعي للشخصيات في حضورها الإنساني أو كما قال الناقد «علي الراعي «المنشغل المحايد.... يسع صدره :الطيب و الخبيث من الشخصيات ، ويعطي كلا حقه. ولكنك تتبين من خلال نظرته – الفنية أساسا- خبث الخبيث وطيبة الطيب»5، ولا غرابة أن ينسب الطيب أيضا عالمه الروائي إلى الواقع تارة و إلى الأسطورة و العجائبي طورا آخر ، نظرا إلى الوشائج الرابطة بينهما «ذلك أن الأسطورة نمط خاص من أنماط التعبير أو لغة خاصة تستند إلى اللغة الطبيعية، ونظام رمزي

يعبر عن مشاغل البشر، الفردي منها والجماعي، لاتصالها بجانب الوعي منهم على اختلاف أشكاله (من دين وتاريخ وفلسفة و فن) أو بما لا يقع منهم تحت دائرة الوعي والإدراك ، ولاتصالها بالفعل والنشاط ومختلف أشكال التأثير في الكون والمجتمع (من طقوس وشعائر و سحر و شعر وأدب وفن وهلم جرا)»6.

يمكن للأفكار التي يربطها إيمان العامة بكرامات الأولياء، أن توسع أفق العجائبية وتمنح الرواية حق تفسير بعض حوادثها بطريقة لا تقل عجائبية ، والعالم إجمالا يعترف «بحدوث ظواهر خارقة على أيدي هؤلاء الأولياء تدل على ما يتمتعون به من امتياز عن سائر الناس، ومن قوة فائقة نظرا لقربهم من الإله «7 ، ولما كانت قرية «ود حامد «تخضع لهذا المعطى فإيمانها بالمعجزات حاضر بالفعل والقوة ، فالكرامة «تجيء كنسيج من مادة المناخ الصوفي ، وهي ليست جزء من التاريخ وحسب ولكنها عنصرا مهما من عناصر ثقافة المجتمع الذي يؤمن بها وتظل حية في وجدانه جيلا بعد جيل ، والطيب صالح يوظف الكرامة في إطار مناخ صوفي يقوم على نكران الذات والتجرد والفناء في ذات المحبوب.»8

كذلك يوظف الطيب صالح بعضا من أنماط المعتقد الشعبي للتعبير عن نفسية الشخصيات ، فهو في فصل من رواية «عرس

الزين «يصف قلق والدة الزين على ولدها الذي طال غيابه بقوله «وأحست أم الزين برجفة خفيفة في جنبها الأيسر فلم تستبشر خيرا إنها تعتقد أن جنبها الأيسر إذا رجف فإن شرا سيلم بأحد ذويها لا محالة «9 وتمضي القصة في وصف صدق حدس أم الزين حيث يعود إليها فيما بعد وعلى رأسه جرح كبير.

و في مشهد الصراع الذي وقع بين «الزين «من جهة و «سيف الدين «من جهة أخرى ، وكيف استطاع «الزين «بجسمه النحيف أن يردي «سيف الدين «أرضا بل كاد أن يقتله لولا وقوف «الحنين «في اللحظة نفسها التي رأى فيها «سيف الدين «الموت «تدفقت في جسم الزين النحيل قوة مريعة جبارة لا طاقة لأحد بها ،أهل البلد جميعا يعرفون هذه القوة الرهيبة ويهابونها ، وأهل الزين يبذلون جهدهم حتى لا يستعملها الزين ضد أحد . إنهم يرتعدون روعا كلما ذكروا أن الزين أمسك مرة بقرني ثور جامح استفزه في الحقل ، أمسك به من قرنيه ، ورفعه عن الأرض كأنه حزمة قش وطرح به ثم ألقاه أرضا مهشم العظام ، وكيف أنه مرة في فورة من فورات حماسة قلع شجرة سنط من جذورها وكأنها عود ذرة . كلهم يعلم أن في هذا الجسم الضاوي قوة خارقة ليست في مقدور بشر، وسيف الدين ، هذه الفريسة التي انقض عليها الزين الآن، إنه لا محالة هالك.»10 أمام هذا المشهد يكشف لنا السارد عن أمر مهم ، الاعتقاد بوجود

قوى خفية تتمتع بقدرات خارقة قادرة على قهر كل قوة معارضة «فجسد الزين نحيل ينطوي على قوى خارقة (قوى الحب/ قوى الموت) والقوى الغالبة على هذه الشخصية هي قوى الحب و الخير التي منحته قلبا واسعا حنونا يسع كل من حوله ويكسر كل الحواجز نشرا للحب و الرحمة، ولكن أمام هذه المهمة كان لابد من مواجهة الشر ،وفي هذه المواجهة تحركت في شخصية الزين قوى خفية يهابها أهل البلد أجمعين إنهم عاينوها غير ما مرة.»11 يستثمر الطيب صالح مشهد المواجهة بين «الزين «و»سيف الدين «ليكشف عن واقعية ساذجة ،جعلت أهل القرية يحملون هذه الحادثة محمل الجد ،حيث إنها أثرت في سلوكاتهم و وتصرفاتهم وجعلتهم «يؤمنون بأن (الزين)ذات الصوفي تنطوي على طبيعة إلهية».12و إلا كيف يفسر بروز «الحنين «فجأة من حيث لا يدري أحد وفي لحظة استطاع أن يهدأ من غضب الزين وينقذ سيف الدين من موت محقق . لقد أدركت القرية أن هذا الأمر من قبيل المعجزات والكرامات التي لا يتمتع بها إلا أهلها «كانت معجزة سيف الدين بداية لأشياء غريبة تواردت على البلد في ذلك العام ولم يعد ثمة شك في ذهن أحد، حتى محجوب، وهم يرون المعجزة تلو المعجزة، أن مرد ذلك كله أن الحنين قال لأولئك الرجال الثمانية أمام متجر سعيد ذات ليلة: (ربنا يبارك فيكم. ربنا يجعل البركة فيكم). كان الوقت قبيل صلاة العشاء

بقليل وهو وقت يستجاب فيه الدعاء،خاصة من أولياء الله الصالحين أمثال الحنين».13 تكشف تجربة الحنين عن سلطة الولي كمنبع للخير و « نصرة الضعيف وإحقاق الحق وإطلاق طاقة الحب»14 ولأن أخص خواص الأولياء «ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات»15 فإن «سيف الدين «عقد العزم على اتباع سبيل الصالحين شوقا إلى التزود بنفح نورهم لأنه الباعث الحثيث له ولأهل القرية على المباركة والقبول. وبما أن تلك الدعوات كانت مستجابة في أغلب الأحيان فقد ازدادت القرية إيمانا واعتقادا في «الأولياء الصالحين وقدرتهم على الإتيان بالمعجزات وتحقيق الكرامات ، بحكم ورعهم وزهدهم وتقواهم ، مما جعل دعواتهم وشفاعاتهم مقبولة»16 فبفضل دعاء»الحنين « «توالت الخوارق معجزة تلو معجزة، بشكل يأخذ باللب . لم تر البلد في حياتها عاما رخيا مباركا مثل (عام حنين) كما أخذوا يسمونه.»17

إن هذا المشهد السردي كاف لملامسة مقومات الرواية العجائبية التي تقدم أحداثها «بوصفها واقعا بديهيا، لكن دون إلغاء الواقع التاريخي واليومي، لأنه بدون هذا الواقع لا يمكن إدراك خصوصية أحداثها ككرامات. وبعبارة أخرى، فإن القصة الصوفية تقدم ذاتها كبداهة، ليس فيها استدلال ولا برهنة ولا تبرير ما لأحداثها وكأن ما ترويه طبيعي. فهي تريد أن تكون بديهية وطبيعية،

بحيث تقدم أحداثا غير مألوفة وخارقة لكن بلغة مألوفة وطبيعية، بل بأسلوب متجذر في التجربة الإنسانية»18ومن هنا يمكن عدها مشروعا يتولى كشف العلاقات الأكثر غموضا التي تكتنف الواقع ، كما تبرز روح «الاتكالية والعجز والقدرية»19 ومن الناحية النفسية «تؤمن له توازنه المهدد دائما بفعل عوامل صراعية مع ذاته ، أم مع الغير، أم مع القيم والمجتمع ... من هنا تأتي الكرامة لتقديم البديل ، وتكيف المجتمع ، وتغطي النقص، وتلغي التوتر ، وتؤكد الذات الصوفية وتحميها من الأمراض النفسية ، ومشبعة بالكلام وحده رغبتها بالقوة و الاقتدار. «20

والبطل الصوفي ببطولاته الخارقة ، من تحد للسنن و إشباع لكل رغباته وتمتع فوق طبيعيته «يغطي في الفرد كل الجراح ويستر فيه الشعور بالنقص والمهانة والفشل و العجز»21ومن وظائف الكرامات عبر البطولات والمشكلات التي تعرضها تتأتى من حيث كون هذه الكرامات تنتصر دائما «ذاك الانتصار يجعل الذات مأخوذة من جانبها اللاواعي تستشعر هي أيضا بالانتصار المؤقت . وهكذا ينسى الفرد أحزان الواقع، وينتشي بالقوة وبالسلطة مما بعيد للذات استقرارها،ويقضي على مشاعرها بالخصاء والقلق المتنوع ،وينفس عن مكبوتاتها ،ويعمل على تصريف العدوانية وعلى شتى أحاسيس العجز والنقص.»22

كما نجد العجائبية حاضرة بخصائصها الأخرى التي تتمثل في القدرة الخارقة على التنبؤات «الزين مبروك ، باكر يعرس أحسن بنت بالبلد»23، وتصدق النبوءة ويتزوج من نعمة بنت الحاج إبراهيم أجمل فتاة في القرية. إن النص الصوفي والعجائبي ذو وظيفة نصية يسمح للرواية بامتصاص واستثمار نصوص الأدب الشفوي ، لكنه أيضا ذو «وظيفة تحلينفسية إذ يقدم ذاتا تأبى الخضوع للقوانين والاكراهات الواقعية والطبيعية وتفضل الانفلات الخيالي ليضعها أمام نص يعتبر شاشة يعكس لاوعيها وجهازا يحمل وعيها».24

تستثمر رواية»عرس الزين «المعطيات الشعبية المرتكزة على الاعتقاد الصوفي والإيمان بمناقب الأولياء وكراماتهم _ كما ذكرنا سالفا_فقد تبين «أن العلاقة بين الزين الحنين و أقرب إلى العلاقة بين الشيخ و المريد و النص لا يخفي أن الحنين من المتصوفة ومن أولياء الله الصالحين «25.من هنا نجد شخصية «الزين «التي تغذت بالكرامات و المعجزات وتأثرت بنظرة الحنين إلى الوجود ، فسلكت سبيله فتوصلت – أحيانا إلى اختراق الواقع المادي المحسوس، والانغماس في العجيب، الغريب ، فقد سارعت الرواية منذ البداية إلى نقل صور حية من هذا القبيل في شكل مواقف و ملفوظات ، فهو خلاف الأطفال الذين يولدون فستقبلون «الحياة بالصريخ ، إذ أول ما مس الأرض انفجر ضاحكا»27، فهو مثله مثل الأولياء الذين

يولدون بأسنانهم.

كل هذه الحمولات الصوفية دفعت الناقد «ناجي نجيب « إلى تلقيب»الزين «بـــ»القديس المعوق»28 ، فمسار حياته من ميلاده حتى زواجه يذكرنا «بمسار حياة ولي من أولياء الله ،والزين بلا عمر محدد .والكثير من ملامحه تخرج به عن المألوف و المعتاد وتدخله في عداد الشواذ وناقصي الخلقة (وهذه من معالم أولياء الله عند الناس) فالصدر مجوف ، والظهر محدودب قليلا.وهو بلا شعر ولا حواجب ولا أجفان رغم انه قد بلغ مبلغ الرجال»29 لذا لم يكن من الغريب أن تروج والدة الزين أن ابنها ولي من أولياء الله «وروجت أم الزين أن ابنها ولي من أولياء الله، وقوى هذا الاعتقاد صداقة الزين مع الحُنين»30، ويضاف إلى ذلك عنصر آخر في شخصية الزين وهو ما تنطوي عليه من القوة البدنية الهائلة التي لا تتفق ومظهره «، وليس من الغريب أيضا أن يمارس تأثيرا على محيطه من خلال استدعاء الكرامة ويكون سببا من أسباب زواج فتيات القرية ، كان «يلهج لسانه بذكر الفتاة ويصيح باسمها حيث ما كان ، فلا تلبث الآذان أن ترهف وما تلب العيون أن تنتبه وما تلبث يد فارس من بينهم أن تمتد فتأخذ يد الفتاة «31 والنتيجة «أمهات البنات يخطبن وده ويستدرجنه إلى البيوت فيقدمن له الطعام ، ويسقينه الشاي والقهوة ، يدخل الزبن الدار من تلك الدور . فيفرش له

السرير ، ويقدم له الفطور أو الغداء في صينية وأوان ، ويؤتى بعد ذلك بالشاي السادة بالنعناع إذا كان الوقت ضحى ، والشاي الثقيل باللبن إذا كان الوقت عصرا . وبعد الشاي يؤتى بالقهوة بالقرفة والحبهان والزنجبيل ، سواء كان الوقت ضحى أو عصرا وما يسمع النساء أن الزين في دار قريبة حتى يتقاطرن عليه ، والسعيدة منهن من تقع في قلبه موقعا ، والتي يخرج واسمها على فمه ، تلك الفتاة تضمن زوجا في خلال شهر أو شهرين . ولعل الزين ، بفطرة فيه ، أدرك خطورة مركزه الجديد ، فأصبح يتدلل على أمهات البنات ويتردد قبل أن يجيب دعوة إحداهن للإفطار أو للغداء «32. يشكل هذا النمط الأسلوبي في تركيب هذه الحكاية إحالة مرجعية – مرجعية تاريخية– فهي تتناص مع المأثور من القصص التي وقعت في تاريخ أدبنا العربي، فالقارئ هاهنا يستدعي لا محالة قصة الشاعر الأعشى مع بنات المحلق الكلابي التي أوردها صاحب «الأغاني «أبو الفرج الأصفهاني يقول :

«ومن خاملي الذّكر الذين رفعهم الشّعر المحلَّقُ الكلابيُّ ، وكان مئناثاً مُمْلقاً ، استضاف الأعشى الكبيرَ ، على رجاء أنْ يصيبه من مدحه خير ، ونحر له ناقته ، وبالغ في إكرامه ... وأحاطتْ به بناتُهُ يخدمْنَهُ ، ويتلطّفْن به ، فقال : ما هذه الجواري حولي ؟ قال : بناتُ أخيك ، وَهُنّ ثمانٍ ، فغدا الأعشى على عُكاظ ، ينشد النّاس

قصيدته التي مطلعها :

أرقتُ وما هذا السُّهادُ المؤرِّقُ وما بيَ منْ سقمٍ وما بيَ معشقُ
وَلَكِنْ أرَاني لا أزَالُ بِحَادِثٍ أغادي بمات لمْ يمسِ عندي وأطرقُ

إلى أنْ قال :

لَعَمرِي، لَقد لاحَتْ عُيُونٌ كَثيرَة إلى ضَوءِ نَارٍ في يَفَاعٍ تُحَرَّقُ
تُشَبّ لمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا وَبَاتَ عَلى النّارِ النّدَى وَالْمُحَلَّقُ
رضيعيْ لبانٍ ثديَ أمٍّ تحالفا بِأسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرّقُ
يداكَ يدا صدقٍ فكفٌّ مفيدة وأخرى إذا ما ضنّ بالزّادِ تنفقُ
ترَى الجُودَ يَجرِي ظاهراً فوْقَ وَجهه كمَا زَانَ مَتنَ الهِنْدُوَانيّ رَوْنَقُ
طويلُ اليدينِ، رهطهُ غيرُ ثنية أشمُّ كريمٌ جارهُ لا يرهَّـــقُ
كذلكَ فافعلْ ما حييتَ إليهمً وَأقْدِمْ إذا ما أعيُنُ النّاسِ تَبْرَقُ

فما أتمّ القصيدة إلاّ والنّاسُ ينسلون إلى المحلَّق يهنّئونه ، والأشرافُ من كلّ قبيلة يتسابقون إليه جرْيا ، يخطبون بناتِهِ ، لمكان شعر الأعشى ، فلم تُمْسِ واحدةٌ منهنّ إلاّ في عِصْمَةِ رجلٍ خيْرٍ من أبيها أَلْفَ ضِعْف.»33

تنتمي رواية «عرس الزين » إلى نوع من الرواية الجديدة ، التي تسعى إلى استثمار التراث بغية الوصول إلى تفسير الأسئلة

المتحكمة في وعي الفرد العربي من الناحية النفسية و الاجتماعية، كما تخلص إلى الاهتمام بالكرامة هو اهتمام بالعجائبية في حد ذاتها باعتبارها خروج عن المألوف وولوج إلى الغريب.من هنا يتفق السرد مع النص الصوفي من حيث «النظرة إلى الطبيعة و الحتميات ، كما أنهما يخلقان و يلتقطان الإشارات و الرموز عينها ، ويعبران عنها من خلال التجربة المعاشة و النفاذ إلى الأعماق». عجائبية الإحداث والشخصيات التي تحتفي بها رواية «عرس الزين «هي سليلة الواقع الاجتماعي المأزوم ، انطلاقا من أن الرواية تاريخ قابل للوقوع ، فإن للتنشئة الاجتماعية و المعتقدية للفرد دور كبير في تأسيس صيغ وأنماط للشخصية ، فالولي في المجتمعات العربية و القروية بالخصوص يتمتع بالحصانة التي تمنحه أحقية النهي و الأمر، فهو المنقذ و المخلص من الأزمات و المساعد على تحقيق أحلام البشر التي عجز عن تحقيقها في الواقع.

الهوامش

[1]-ابن عربي فصوص الحكم ،تحقيق: أبو العلا عفيفي (بيروت:دار الكتاب العربي،ط2،1980) ص.9

2-عبد الحميد الصغير إشكالية إصلاح الفكر الصوفي (المغرب:دار الآفاق،ط2،

1994)ص 18.

3- إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية (تونس:المؤسسة العربية للناشرين المتحدين،ط1،1986) ص143.

[4]- عليمة قادري، نظام الرحلة ودلالتها- السندباد البحري –عينة (دمشق: وزارة الثقافة،د.ط، 2006) ص 44.

[5]- مجموعة من الكتاب العرب، الطيب صالح عبقري الرواية العربية ، (بيروت:دار العودة، ط3 ،9881)ص 102.

[6] - محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب ،الجزء الأول (بيروت: دار الفارابي، تونس:محمد علي للنشر و التوزيع،ط 1،1994) ص 31.

[7]- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المقهور) (بيروت:المركز الثقافي العربي، ط8،2001) ص .143

[8] - عوض السيد موسى عوض السيد ، السردية في الأدب العربي بين الأصالة والتحول (عرس الزين) نموذجاً في: مجلة آداب النيلين،مصر، العدد2، 2011، ص 186.

9- الطيب صالح، الأعمال الكاملة، بيروت ،ص 218.

[10] - المصدر نفسه، ص 222.

11- حسن المودن، قراءة في رواية عرس الزين، ص12.11

[12]- علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة و الحلم : القطاع اللاواعي في الذات العربية (بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع،ط2،1984) ص 21.

13- الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص 236.

[14]- مجموعة من الكتاب العرب، الطيب صالح : دراسات نقدية (بيروت: رياض الريس للكتب و النشر، الطبعة الأولى،2001) ص 160.

15- أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال (القاهرة:دار النصر للطباعة،ط7،1972) ص172.

16- مجموعة من الكتاب العرب، الطيب صالح : دراسات نقدية، ص159.
17- الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص 237.
18- عبد الحق منصف - لغز الحكاية الصوفية -مجلة مواسم - موسم 2/ 3 ربيع صيف 1995، ص 27.
19- علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة و الحلم : القطاع اللاواعي في الذات العربية ،ص 54.
20- المرجع نفسه ،ص119.
21- المرجع نفسه ،ص34.
22- المرجع نفسه ،ص35.
23- الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص 225.
24- علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة و الحلم : القطاع اللاواعي في الذات العربية ،ص 12.
25- مجموعة من الكتاب العرب،الطيب صالح عبقري الرواية العربية،ص 111.
26- المصدر نفسه، ص 187.
27- مجموعة من الكتاب العرب، الطيب صالح : دراسات نقدية، ص324.
28- المصدر نفسه ، ص 324.
29- مجموعة من الكتاب العرب، الطيب صالح : دراسات نقدية،ص 324.
30- المصدر نفسه، ص 199.
31- المصدر نفسه، ص 200.
32- أبو الفرج الأصفهاني ،الأغاني، تصحيح:أحمد الشنقيطي، ج8(القاهرة: طبعه مطبعه التقدم، د.ط،1916) ص 77.